أنبياء الله وأنبياء الكذب!

قراءة في سفر إرميا (ف ٢٦-٢٩)

الخوري جان عزام
دكتور في العلوم
البيبليّة

مقدّمة

من يستطيع أن يجيب على تساؤلات الإنسان القلق من الأحداث المحيطة به؟ ذاك الإنسان المهدّد في لقمة عيشه، وأمنه، وحياة عائلته، ومن اللاإستقرار النفسيّ والمادّيّ الذي يزعزع كيانه، وكلّ ما بنى وما زال يحاول أن يبني من ضمانات بشريّة، لا تلبث أن تضيع في خضمّ هذه المتغيّرات المتسارعة من حوله! من يدلّه على مخارج الخلاص، أو يحذّره من المخاطر قبل فوات الأوان؟ من يستطيع أن يُعلمه مسبقًا بما سيكون؟ من يكون ذاك القادر أن يجيب على هذه الأسئلة وغيرها؟ من هو النبيّ الحقيقيّ؟

تبدو هذه الأسئلة خلاصة لما يحدث عندنا، أو مقدّمة لمقال عن "أنبياء" عصرنا، الذين نراهم أو نسمعهم كلّ يوم على شاشات التلفاز أو صوت أثير الإذاعات، وهم كلّهم حماسة وافتخار بامتلاكهم الأجوبة الشافية على كلّ هذه الأسئلة وغيرها. كلاّ! هذه مقدّمة لقراءة في سفر إرميا، يصدف أن تطرح القضيّة نفسها، قضيّة الأنبياء الكذّابين، لا لشيء إلاّ لأنّهم يدّعون الكلام باسم الله، أو باسم إلهام أو حدس إلهيّ، والله منهم بريء! هذا ما قاله النبيّ إرميا – نبيّ الله كما سنرى– عن أنبياء الكذب، وهذا ما قد يجب أن نقوله عن بعض "أنبياء" عصرنا، وإن كنّا لا نتوقّف عندهم مباشرة في هذه المقالة.

ولعلّه من المفيد أن نتوقّف قليلاً، قبل الدخول في الموضوع، عند بداية أحد أقوال النبّي في ف ١٧ حيث يعلن إرميا أنّ جوهر الموضوع هو في من نضع ثقتنا: هل نضعها في الإنسان أم في الله؟

وقالَ الرّبُّ: "مَلعونٌ مَنْ يتوكَّلُ على الإنسانِ، ويَجعَلُ البشَرَ سنَدًا له، ويَصرِفُ قلبَهُ عَنِ الرّبِّ،
فيكونُ مِثلَ النَّبْتِ في الصَّحراءِ، وَلا يَرى الخيْرَ إذا أَقبَلَ،
يَسكُنُ الفَلاةَ الشَّديدةَ الحَرِّ، والأرضَ المالِحةَ التي لا تُسكَنُ.
مُبارَكٌ مَنْ يَحتَمي بِالرّبِّ، ويَجعَلُ الرّبَّ مَأْمَنًا لَه،
فيكونُ كشجرَةٍ مَغروسةٍ على المياهِ، وعِندَ النَّهرِ تَمُدُّ جذورَها.
لا تَرى الحَرَّ إذا أقبَلَ، بل يَبقى ورَقُها أخضَرَ.
وفي سنَةِ القَحْطِ لا تَخافُ ولا تَكُفُّ عَنِ الإثمارِ".

الموضوع هنا لا يتعلّق بالضرورة بالإنسان الذي يكذب متعمّدًا، أو يعمل على تزييف الحقيقة لمصلحة ما قد تقوده إلى ادعاء نبوءة أو قيادة الناس... الأمر ببساطة يتعلّق بكلّ إنسان وبأيّ إنسان ليست أقواله وأعماله

من الله. الإنسان الذي يتوكّل على إنسانٍ ليس من الله، يضع حياته في إنسان مائت! وهل يضمن المائت الحياة؟ هذا الأمر يذكّرني بأحد أهمّ الأشخاص الذي كنت أنتظر منه خلال الحرب الأهليّة، أنا ومئات الألوف من الناس، أن يؤمّن لنا الحياة والمستقبل...؛ ومع أنّه كان يرغب في ذلك، وعلى الأرجح كان صادقًا، لكنّه مات! و لم يبق لنا إلاّ خيبة الأمل.

إنّ الإنسان الملعون هو بكلّ بساطة من يطلب الحياة من إنسان مثله، ويتوكّل على كلامه من دون أن يكون الله قد كلّفه بالأمر، فأعطاه الموهبة اللازمة لعمله أو أقواله! بهذا المعنى، فإنّ أيّ إنسان يتكلّم أو يعلّم أو يطلب من الآخرين اتّباعه، يجب عليه أن يتحمّل مسؤوليّة قيادة الناس إلى ما لا يتناسب وإرادة الله فيهم إن كان أصل كلامه أو تعليمه أو قيادته من غير الله. ولذلك يقول النبيّ: "ملعون من يتّكل على إنسان!". لا لأنّه يدعو الابن كي لا يتّكل على أبيه، إن كانت أبوته من الله، ولا التلميذ كي لا يسمع لمعلمه إن كان يعلّم بما يوافق الحقيقة الطبيعيّة أو الإلهيّة، ولا من الناس كي لا تطيع من سلّطهم الله عليها...، بل ملعون من يتوكّل على إنسان معتقدًا أنّ الإنسان يستطيع بذكائه أو بمعرفته أو بماله أو بقوّته أن يؤمّن له الحاضر أو المستقبل أو الحياة بكلّ أشكالها.

١–من هو نبيّ الله إذًا، ومن أين يأتي أنبياء "الكذب"؟

إرميا هو أحد أنبياء العهد القديم، وقد ثبتت نبوءاته بكونها كلمةَ الله حقًّا، وذلك بأنّها تحقّقت بكاملها! فما هي هذه النبوءات التي تحقّقت؟ أوّلاً، لا يتنبّأ أنبياء الله إلاّ قليلاً عن المستقبلات، لأنّ الله ليس هنا ليُعلمَنا بما سيحدث، بل بمعنى الذي يحدث، أي بفهم الحاضر! المستقبل قد يأتي وقد لا يأتي، بمعنى أنك قد تعيش لتحياه عندما يصبح حاضرًا، وقد لا تعيش لتصل إليه، أو قد يحدث ما يفقده الأهمّيّة في نظرك! أمّا المهمّ فهو الحاضر، لأنّه هو الموجود الآن، وأنت عليك أن تتعامل مع هذا الحاضر، كما هو، أللّهمّ إذا استطعت أن تتعامل معه انطلاقًا من فهم حقيقيّ للأحداث التي تعيشها أنت ومن يحيطون بك! لذلك، فأوّل ما يميّز النبيّ الحقيقيّ هو أنّه يحثّنا، إنطلاقًا من أحداث الحاضر ومجرياته، للعمل بحسب إرادة الله فينا.

النبيّ الحقيقيّ لا يتكلّم باسم نفسه، ولا باسم بشرٍ آخر، بل باسم الله وحده، وبهدف دعوة الناس للعمل بإرادة الله المؤدّية إلى الحياة، دون أيّ إرادة أخرى لا تعطي الحياة!

النبيّ هو المتكلّم بالحقيقة، وهو الذي يتحقّق كلامه، وهذه الكلمة الإلهيّة التي يتلقاها وينطق بها تغيّر مسار حياته وتقلب مشاريعه، وتقوده إلى حياة بعيدة عن أحبّائه وأصدقائه، بل تجلب له عداوة كلّ الذين يفضّلون الظلام لئلاّ تظهر أعمالهم الشرّيرة، وينبذون كلمة الله التي تفضح خطاياهم وكذبهم!

سفر النبيّ إرميا مليء بالنبوءات العظيمة، ومع أنّه اشتكى جدًّا في حياته من رفض الناس له ولكلماته، وعبّر عن ذلك بأناشيد مريرة من كثرة ألمه، إلاّ أنّه يعبّر فيها وفي غيرها عن إيمانه الراسخ والثابت بدعوته وبرغبته في تتميم رسالته النبويّة حتّى النهاية:

إنَّكَ يا رَب قد عَرَفتَني، فاذكُرْني وافتَقِدْني وانتَقِمْ لي مِن مُضطَهِديَّ.

لا تَجعَلْني ضَحِيَّةً بِسَبَبِ طولِ أَناتِكَ. إعلَم أَنِّي احتَمَلتُ العارَ لأَجلِكَ.

حينَ كانَت كلماتُكَ تَبلُغُ إليَّ كنتُ ألتهِمُها،
فكانَت لي كَلِمَتُكَ سُرورًا وفرَحًا في قلبي، لأنّي باسمِكَ دُعيتُ، أيُّها الرَّبُّ إلهُ القُوّات.
لم أجلِسْ في جماعةِ الضّاحكينَ مُمازِحًا، بل تحتَ يدِكَ جَلَستُ مُنفرِدًا لِأنَّكَ مَلأتني غضبًا.
لِماذا صارَ ألَمي دائمًا، وضَربَتي معضلةً تأبى الشِّفاء؟
إنَّكَ صِرتَ لي كينبوعٍ كاذب، كمياهٍ لا يُعتَمَدُ عليها.
لذلك هكذا قالَ الرَّبّ: إن رَجَعتَ أرجَعتُكَ فتَقِفُ بَينَ يَدَيَّ،
وإن أخرَجتَ النَّفيسَ مِنَ الخَسيس، صِرتَ كفَمي،
فهُم يَرجِعونَ إليكَ، وأمَّا أنتَ فلا تَرجِعُ إليهم.
وسأجعَلُكَ تجاهَ هذا الشَّعبِ سورًا مِن نُحاس حَصينًا، فيحاربونَكَ ولا يَقدِرونَ عليكَ،
لِأنِّي مَعَكَ لِأُخلِّصَكَ وأُنقِذَكَ، يَقولُ الرَّبّ" (١٥: ١٠ت، رج ٢٠: ٧-١٨).

عاش إرميا هذا الرسوخ في الإيمان وفي العزم على الرسالة النبويّة، وكان يتوجّه بكلامه إلى عامّة الناس، فإذا به يصطدم غالبًا بأولئك الذين يسمّيهم بولس الرسول: "الذين إلههم بطنهم، ومجدهم في عورتهم"، عنيت أولئك الذين يعتبرون أنّ الحياة أكلاً وشربًا وجنسًا ومالاً وتجارةً وعلمًا وسفرًا...، ولا يهتمّون أبدًا بفهم إرادة الله "اليوم" في حياتهم. هم أولئك الذين، إذا قلت لهم، "يقول الله..." أو "أنّ إرادة الله هي..."، يجيبونك: "أترك الله جانبًا، فهو أعطانا العقل، لنفكّر نحن، ونقرّر نحن، ونعمل نحن...!". وإذا قلت لهم: "إنتبهوا من الاهتمام فقط بالجسد وبالعلم، فليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكلّ كلمة تخرج من فم الله"، يجيبونك: "وممّا نؤمّن الطعام واللباس، والعلم؟ ألعلّ الله يرسلها بالقفّة من السماء...؟ "فليس بكلمة الله وحدها يحيا الإنسان بل بكلّ خبز وعلم وعمل يؤمّنه الإنسان لنفسه ولأولاده!". هؤلاء أنفسهم، هم من يتسمّرون ساعتين أمام التلفاز ليعرفوا ما ينطق به أنبياء الكذب، وباعة الكلمات الفارغة، ويدفعون الملايين لهم لينالوا منهم كلمة تطمئنهم حول مستقبلهم وأولادهم وأعمالهم...، ويفرحون بالوعود الكاذبة. كان على إرميا أن يلقي كلمة الله على مثل هؤلاء الناس، ولكنّهم لم يكونوا مهتمّين بكلمة الله الصادقة، بل بكلمات العرّافين وأنبياء الكذب، فما كان منه إلاّ أن واجه هؤلاء الكذّابين في عقر دارهم.

٢-صراع إرميا مع النبوءات الكاذبة وأنبياء الكذب

أ- دعوة إرميا

منذ البداية، أراد إرميا أن يتأكّد بأنّ الله يرسله، فاعترض على دعوته بأنّه "صغير" "ولا يعرف أن يتكلّم"، وكأنّي به يقول للربّ: "لست أهلاً ولا قادرًا على مواجهة أولئك المتمرّسين في "إبداء النصائح" للملوك والأمراء والشعب، أولئك الذين يعرفون أساليب البلاغة والإقناع... أنا لست منهم ولا أستطيع أن أكون مثلهم! فمن أين آتي بالأفكار والتفاسير، وليس عندي أيّ خبرة؟!". ونجد في جواب الربّ المفتاح الأوّل

للنبوءة الحقيقيّة: ليست النبوءة بلاغة في علم الكلام، ولا تحليلاً منطقيًّا مبنيًّا على اختبار الشيوخ، بل هي هذا بالضبط: "لا تقل أنا طفل بل تذهب إلى من أرسلك إليهم، وتقول ما أنا آمرك بقوله" (١: ١-٨). في الواقع، لا تقوم النبوءة على معرفة بشريّة مهما وسعت أو تشعّبت أو اكتسبت من اختبارات (هنا موضوع حكمة كبار السن)، ولا تقوم أيضًا على علم الكلام والبلاغة (هنا معرفة فنّ الكلام والإقناع الذي يميّز الحكماء والخطباء)، ولا يختار النبيّ إلى من يتوجه (كان الأنبياء المزيّفون موظّفين في بلاط الملك أو لدى بعض العظماء). النبيّ يتكلّم أمام من يريد الربّ أن يكلّمهم، ويقول ما يأمره الربّ أن يقوله لهم، ويتحلّى بالجرأة التي يعطيه إيّاها الربّ ليعلن الحقيقة دون مواربة، حتّى ولو كلّفته الاضطهاد بل وحياته أيضًا.

ب- كلمة كذب، "شِقِر"، في نبوءة إرميا

يتميّز سفر إرميا باستعمال كلمة "شِقِر"، أي شهادة الكذب، في فصول عديدة، وذلك منذ الفصول الأولى؛ فنجد استعمالاً لكلمة "كذب" في ٣: ٢٣ و٥: ٣١ و٧: ٩، و١٠: ١٤، في إشارة إلى زيف البعل وعبادته مع كلّ الأصنام الأخرى. وفي الفصل السابع، نجد لها معنى "الوقوع في خدعة الأوهام"، والموضوع هنا (رج آ ٤ و٨) هو التوهّم بأنّ وجود الهيكل في وسط أورشليم يعطي ضمانة للشعب بأنّ المدينة لا تُقهر. والنبيّ إرميا يحذّر الناس من تصديق تلك الأكاذيب التي تجعلهم يعيشون في الوهم، لأنّهم سيستفيقون عاجلاً على خراب مدينتهم، والهيكل نفسه، إن لم يتوبوا ويعودوا إلى الربّ؛ وهذا ما حصل فعلاً في سنة ٥٨٧ ق. م.!

الأمر عينه يتكرّر في فصول عديدة لا مجال لتعدادها كلّها، ويتعلّق بالأخص بالأنبياء المزيفين، وبكذب نبوءاتهم، وبالأخص بكونهم يجرّون الناس إلى الإيمان بما هو زائف وفارغ، لأنّه ليس من كلمة الله.

ولعلّ هذا المعنى بالذت ما يميّز استعمال هذه الكلمة في الفصول ٢٦-٢٩ التي سنقدّمها لاحقًا: هنا تتكرّر كلمة "شِقِر" تسع مرّات (٢٧: ١٠، ١٤، ١٥؛ ٢٨: ١٥؛ ٢٩: ٩، ٢١، ٢٣، ٣١)، وتشير دائمًا إلى النبوءات الكاذبة، أو الوعود الخدّاعة، أو جرّ الناس إلى الاعتماد على وعود وهميّة... لنرَ بالتفصيل!

٣- الفصول ٢٦-٢٩

يمكننا عنونة الفصول ٢٦-٢٩ بمثابة "مقدّمة" لكتاب التعزية، وفيها ثلاثة محاور: بداية اضطهاد إرميا، بسبب نبوءاته ضدّ الشعب وأورشليم (ف ٢٦)، والذي سيتحوّل لاحقًا إلى اضطهاد مباشر ومحاولات قتل وتصفية من قبل الملك وأعوانه (ف ٣٦ي)، وإن بدا في أوّل الأمر أنّ أمراء الأسرة المالكة يحمونه من الموت، مؤكّدين أنّه نبيّ حقيقيّ ويتكلّم باسم الربّ.

أمّا ف ٢٧ فيتعلّق برسالة يرسلها إرميا إلى ملوك الممالك الصغرى، آدوم ومؤاب وعمّون وصيدا وصور وأورشليم، الذين شكّلوا تحالفًا مع مصر بقيادة الفرعون بساماطيق الثاني (٥٩٣-٥٩٢ ق. م.) ضدّ أمبراطوريّة بابل، حيث يدعوهم إلى القبول، باسم كلمة الربّ التي تلقّاها، لأن يقبلوا بوضع نير ملك بابل، نبوخد نصر، والخضوع له، بدلاً من مقاومته والتسبّب بخراب بلدانهم. وهنا يلجأ النبيّ إلى ما نسمّيه "الفعل

النبويّ"، فيضع النير على رقبته ليظهر لسامعيه حقيقة النبوءة التي يعلنها لهم. والملاحظ أنّ الربّ يأمر نبيّه بأن يدعوهم جهارًا إلى عدم الاستماع إلى أنبياء الكذب، والحالمين أحلامًا فارغة، والمنجّمين:

"هكذا قالَ رَبُّ القُوَّات، إلهُ إسرائيل: هكذا تقولونَ لسادتِكم:
أَنا صَنَعتُ الأَرضَ والبشرَ والبهائِمَ الَّتي على وَجهِ الأَرض،
بِقُوَّتي العَظيمَةِ وبِذراعِيَ المَبْسوطَة، وأَعطَيتُها لِمَن حَسُنَ في عَينَيَّ.
والآن قد أَسلَمتُ أَنا جَميعَ هذه الأَراضي إِلى يَدِ نَبوكَد نَصَّر، مَلِكِ بابِل، عَبْدي،
وأَعطَيتُه أَيضاً وُحوشَ الحَقْلِ لِتَخدِمَه، فتَخدِمُه جميعُ الأُممِ، وتَخدِمُ ابنَه وآبنَ ابنِه،
إِلى أَن يَبلغَ أَوانُ أَرضِه أَيضًا، وتَستَعبدُه أُمَمٌ كثيرةٌ وملوكٌ عظماء.
والأُمَّةُ والَمملَكَةُ الَّتي لا تَخدِمُ نَبوكَد نَصَّر، مَلِكَ بابِل، وكُلُّ مَن لا يَجعَلُ عُنُقَه تَحتَ نيرِ مَلِكِ بابِل،
فإِنِّي أَفتَقِدُ تلكَ الأُمَّةَ بِالسَّيفِ والجوعَ والطَّاعون، يقولُ الرَّبّ، إِلى أَن أُفنِيَها بيدِه.
فلا تَسمَعوا لأَنبيائِكم وعرَّافيكم وحالميكم ومُنَجِّميكم وسَحَرَتِكمُ الَّذينَ يُكَلِّمونَكم قائِلين:
إِنَّكم لا تَخدِمون مَلِكَ بابِل،
فإِنَّهم إِنَّما يَتَنَبَّأُونَ لكم بِالكَذِب لِيُبعِدوكم عن أَرضِكم، ولِأَدفَعَكم فتَهلِكوا" (٢٧: ٩-١٠).

ويتوجه النبيّ إلى الملك صدقيّا وأمرائه والكهنة وكلّ الشعب، فيسمّي مباشرة أنبياء إسرائيل المزيفين الذين لا يتنبّأون باسم الربّ، بل بالكذب:

"ضَعوا أَعناقَكم تَحت نيرِ مَلِكِ بابل، واخدِموه مع شعبِه فتَحيَوا.
فلماذا تَموتُ أَنتَ وشَعبُكَ بالسَّيفِ والجوعِ والطَّاعون،
كما تَكَلَّمَ الرَّبُّ على الأُمَّةِ الَّتي لا تَخدِمُ مَلِكَ بابِل؟
فلا تَسمَعوا لِكَلامِ الأَنبياءِ الَّذينَ يُكَلِّمونَكم قائِلين: لا تَخدِموا مَلِكَ بابل،
فإِنَّهم إِنَّما يَتَنَبَّأُونَ لكم بِالكَذِب، لأَنِّي لم أُرسِلْهم، يقولُ الرَّبّ،
وقد تَنَبَّأُوا باسمي كَذِبًا، لأَدفَعَكم فتَهلِكوا أَنتُم والأَنبياءِ الَّذينَ تَنَبَّأُوا لكم.
هكذا قالَ الرَّبّ: لا تَسمَعوا لكلامِ أَنبيائِكمُ الَّذينَ يَتَنَبَّأُونَ لكم قائلين:
ها إِنَّ آنِيَةَ بَيتِ الرَّبّ يُؤتى بِها مِن بابِلَ عن قَريب، فإِنَّهم إِنَّما يَتَنَبَّأُونَ لَكم بِالكَذِب.
لا تَسمَعوا لهم، بلِ اخدِموا مَلِكَ بابِلَ فتَحيَوا، فلماذا تَصيرُ هذه المَدينَةُ خَرابًا؟" (آ ١٦).

أمّا المواجهة الكبرى للنبيّ فتحصل مع أحد أشهر وأقوى هؤلاء الأنبياء، أعني حننيا النبيّ، الذي أراد أن يقارع النبيّ إرميا، كلمة بكلمة، وإعلانا بإعلان، فتحدّاه أمام الكهنة والشعب كلّه، مدّعيًا بأنّ نير نبوخذ نصّر سيُكسَر بعد سنتين:

"في هذه السَّنَة، في بَدْءِ مُلْكِ صِدقِيَّا، مَلِكِ يهوذا، في السَّنَةِ الرَّابعة، في الشَّهرِ الخامس، كَلَّمَني حَنَنْيا بنُ عَزُّور، النَّبيُّ الَّذي مِن جِبْعون، في بيتِ الرَّبِّ أَمامَ الكهنةِ وكُلِّ الشَّعبِ قائلاً: هكذا قالَ رَبُّ القُوَّات، إلهُ إسرائيل: إنِّي قد كَسَرتُ نيرَ مَلِكِ بابل، وبَعدَ مُدَّةِ سَنَتَين، أُرجِعُ إلى هذا المكانِ كُلَّ آنيةِ بيتِ الرَّبِّ الَّتي أَخَذَها نبوكد نَصَّر، مَلِكُ بابِل، مِن هذا المكان، وذَهَبَ بِها إلى بابِل، أُرجِعُ إلى هذا المَكانِ يَكُنْيا بنَ يوياقيم، مَلِكِ يهوذا، وكُلَّ مَجلُوِّي يَهوذا الَّذينَ ذَهَبوا إلى بابِل، يقولُ الرَّبّ، لأَنِّي سأَكسِرُ نيرَ مَلِكِ بابل" (٢٨: ١-٤).

فما كان من النبيّ إرميا إلاّ أن أجابه بكلمة الربّ معلنًا زيف ادّعائه، وبطلان كلامه، لا لشيء إلاّ لأنّه لم يتكلّم باسم الربّ، ومتحدّيًا إيّاه بأحد أهمّ مميزات كلام الله، وهو بأنّه يتحقّق فعلاً، ويثمر ما وعد به؛ فكلمة الله دائمًا صادقة، وهي تقود من يطيعها إلى الحقيقة مهما كانت مرّة أو مؤلمة، ولكنّها حقيقة مليئة بالحياة وبحضور الربّ وعمله، حتّى ولو كان من يعيشها يتألّم. يقول إرميا مؤكّدًا صحّة كلامه، متوجّهًا إلى حننيا:

"إنَّ الأَنبياءَ، الَّذينَ كانوا قَبْلي وقَبلَكَ منذُ قَديمِ الزَّمَن،
تَنَبَّأُوا على أَراضٍ كثيرةٍ وممالِكَ عظيمةٍ بالحربِ والشَّرِّ والطَّاعون.
أَمَّا النَّبيُّ الَّذي تَنَبَّأَ بالسَّلام، فعِندَما يَتِمُّ كلامُ النَّبيِّ يُعرَفُ أَنَّ ذَلك النَّبيَّ أَرسَلَه الرَّبُّ حَقّا...
إسمع يا حَنَنْيا، إنَّ الرَّبَّ لم يُرسِلْكَ، وأَنتَ قد جَعَلتَ هذا الشَّعبَ يَعتَمِدُ على الكَذِب.
لِذلك هكذا قالَ الرَّبّ: هاءَنَذا أَنْفيكَ عن وجهِ الأَرض،
فإِنَّكَ في هذه السَّنَةِ تموت (لأَنَّكَ تَكَلَّمتَ بالعصيانِ على الرَّبّ.
فماتَ حَنَنْيا النَّبِيُّ في تِلكَ السَّنَة، في الشَّهرِ السَّابع" (٢٨: ٨-٩ و ١٥-١٧).

كان النبيّ حننيا يتكلّم كلامًا سياسيًّا، أكثر منه إلهيًّا، بل كان يشجّع على التمرّد على البابليّين، لأنّه كان من حزب المشجّعين على التحالف مع مصر ضدّ بابل. إنّه صراع سياسيّ، يُستعمل فيه كلام الله لخدمة قضايا بشريّة! لقد كان حننيا رجل الفرعون، لا رجل الله، ولذلك كان عاجزًا عن أن يرى بأنّ نبوخذ نصر، في سيطرته على أورشليم، يقوم بخدمة إرادة الله في أورشليم وشعبها. هذا الشعب وكهنته وأنبياؤه كانوا قد تمرّدوا على الربّ، وأراد الربّ أن يذلّهم تحت نير نبوخذ نصر، لكي يدفعهم للعودة إليه، فيعود هو ويحرّرهم من نير نبوخذ نصر! لذلك لا يخشى إرميا من تسمية نبوخذ نصر بـــ "عبد الربّ"، هذا اللقب الذي يُطلق عادة على "المسيح" المنتظر، كما في أناشيد عبد الله في أشعيا، أو كما أُطلق على داود وسليمان، أو كما سيُطلق على يسوع المسيح في الأناجيل. نعم! نبوخد نصر هو عبد للربّ بقدر ما يحقّق إرادة الربّ في خلاص شعبه، لا من النير والذلّ البشريّين، بل قبل كلّ شيء من نير عبوديّة الخطيئة! نبوخد نصر ليس قدّيسًا، ولا هو حتّى مؤمن، ولكنّه أداة إذلال للشعب الخاطئ لعلّه يعود إلى ربّه، فيحلّصه من عبوديّة الخطيئة، ثم من عبوديّة البابليّين، كما سيتنّبأ بذلك إرميا نفسه في ف ٢٩، في رسالته الشهيرة لليهود المجلوّين إلى بابل:

"هكذا قالَ رَبُّ القُوَّات، إلهُ إسْرائيل: لا يُضِلَّنَّكم أَنبياؤُكمُ الَّذينَ بَينَكم وعَرَّافوكم،
ولا تَسمَعوا لحالِميكمُ الَّذينَ تسأَلونَهم أَحلامًا،
فإِنَّهم إِنَّما يَتَنَبَّأُونَ لكم باسمي كَذِبًا، وأَنا لم أُرسِلْهم، يَقولُ الرَّبّ.
لأَنَّه هكذا قالَ الرَّبّ: عندَ انقضاءَ سبعينَ سنةً في بابل،
أَفتَقِدُكم وأُتِمُّ لكم كَلِمَتي الصَّالِحَةَ بإِرجاعِكم إلى هذا المَكان،
لأَنِّي أَعلَمُ أَنَّ أَفْكارِيَ الَّتي أُفَكِّرُها في شأنِكم، يَقولُ الرَّبّ، هي أَفْكارُ سَلامٍ لا بَلْوى، لأَمنَحَكم بقاءً ورجاءً،
فتَدْعونَني وتَذهَبونَ وتُصَلُّونَ إِلَيَّ، فأَستَمِعُ لكم،
وتَلتَمِسونَني فتَجدونَني، إذا طَلَبتُموني بكُلِّ قُلوبِكم، وأَدَعُكمَ تَجدونَني، (يقولُ الرّبّ،
وأُرجِعُ أَسْراكم، وأَجمَعُكم مِن بَينِ كُلِّ الأُمَمِ، ومِن جَميعَ الأَماكنِ الَّتي دَفَعتُكم إِلَيها، يَقولُ الرَّبّ،
وأُرجِعُكم إِلى المَكانِ الَّذي جَلَوتُكم مِنه)".

إنّ مأساة الأنبياء الكذابين أنّهم مليئون من أنفسهم، أو أنّهم يخدمون قضيّة بشريّة معاكسة لإرادة الله! لعلّهم يجذبون الناس أو يخدعونهم، أو يسمّرونهم على التلفاز لساعات ويلعبون بمشاعرهم... هم دائمًا يبحثون عن ربح بشريّ: المال، السلطة، السياسة... هم عميان، والشعب الذي ينقاد لهم أعمى، والجميع يقعون في الحفرة. أمّا أنبياء الله، فيدلّون الناس غالبًا على الباب الضيّق والطريق الضيّق...، ولكنّه الطريق المؤدّي إلى الحياة، والباب الذي ينفتح للحياة.

خاتمة

أخطر ما يصيب شعبًا أو مجتمعًا، قديمًا كان أم حديثًا، هو استعمال كلمة الله للكذب! وعادة تقع هذه المصيبة العظيمة على الناس عندما يعيشون هم أنفسهم في الكذب على أنفسهم! يعتبرون الحياة في كلّ شيء إلاّ في البحث عن إرادة الله. يريدون التحرّر من الله، فيصبحون عبيدًا بعضهم لبعض. ولأنّ أهمّ ما يبحثون عنه، ليضمنوا حياتهم، بعد أن تخلّوا عن ضمانة الله لهم، هو المال والسلطة، وهي آلهة مزيّفة وفارغة، كما قال إرميا والأنبياء، والربّ يسوع...، فإنّ هذه الآلهة تنتج لهم كهنة يعبدون المال، ويبتعدون عن خدمة القطيع لتدبير حياتهم الخاصّة؛ وترسل لهم رؤساء وزعماء عميان لا يبحثون إلاّ عن السلطة، فيقودون الناس إلى الانحطاط واليأس والهجرة؛ وتهديهم أنبياء كذابين، يدّعون طمأنتهم ويغدقون عليهم بالوعود الكذابة مدّعين معرفة المستقبل، فيجرّونهم إلى سراب الأوهام، وما أدراك بنتيجة خيبة الأمل عندما تقع الواقعة!

وحدهم رجال الله يتكلّمون بكلامه، فإذا كان تهديدًا، فم يهدّدون ليدعوا الناس إلى التوبة، وإذا كان وعيدًا، فهم يتوعّدون، ليحثّوا الناس على العودة إلى ربّهم، وإذا وعدوا بالسلام أو بالخلاص، فالسلام آت، لكنّه يأتي فقط للتائبين!

قد تكون هذه حالة الناس في هذا العصر، وفي هذا الشرق، وفي هذه البلاد! لقد طالت لعصور أوهام نبوءات ليست من الله، وهي لم تحمل إلاّ خيبات الأمل! وحتّى التي من الله يتركونها ويزدرونها مرتمين في أحضان الوعود الكذّابة، فيخيبون! لم يعد في عصرنا عبّاد أوثان خشبيّة أو نحاسيّة، على الأقلّ ليس بطريقة جهوريّة. ولكنّ عصرنا مليء بعبادة بشر يدّعون لأنفسهم صفات الله، من معرفة المستقبل، وقيادة الناس إلى الحياة والخلاص، أصنام في السياسة، أصنام في الاقتصاد، أصنام في الفكر والفلسفة، أصنام في اللاهوت، وأصنام من بين الذين يجب أن يخدموا الله، فإذا هم خدّام البشر... وهؤلاء كلّهم يتنبّأون بالزيف: إنّهم الأصنام الجديدة التي أرغب أن أختم مقالتي بمقطع من إرميا عنها وعن عابديها، وأرجو قراءتها بطريقة رمزيّة:

"إسمَعوا ما تَكلَّمَ بهِ الرّبُّ عليكُم، يا بَيتَ إسرائيلَ:

لا تتعَلَّموا طريقةَ الأممِ، ولا تَفزَعوا مِنْ عجائِبِ السَّماواتِ.

الأمَمُ وَحدَها تَرتَعِبُ مِنها، لأنَّ ديانةَ الأمَمِ باطِلةٌ...،

فلا تَخافوها، لأنَّها لا تَضرُّ ولا تَنفَع.

لا نَظيرَ لكَ يا ربُّ، عظيمٌ أنتَ، عظيمٌ اسمُكَ الجَبَّارُ.

مَنْ لا يَهابُكَ، يا مَلِكَ الشُّعوبِ؟ فمَهابَتُكَ تَليقُ بكَ.

بَينَ جميعِ حُكَماءِ الشُّعوبِ، وفي المَمالِكِ كُلِّها لا نظيرَ لكَ.

أغبياءُ هُم وحمقى، فماذا يتَعَلَّمونَ مِنَ الخشبِ؟ ...

لكنَّ الرّبَّ هو الإلهُ الحقُّ، الإلهُ الحيُّ والمَلِكُ الأزليُّ.

مِنْ سُخطِهِ تتزلزَلُ الأرضُ، والأمَمُ لا تتَحَمَّلُ غضَبَهُ...

الرّبُّ صنعَ الأرضَ بقُوَّتِهِ.

ثَبَّتَ العالَمَ بالحكمةِ، وبَسَطَ السَّماواتِ بِفِطنَتِهِ...

مَنْ يَعرِفْ ذلكَ يَحِسّ بالغباءِ، وكُلُّ صائغٍ يَخجلُ بتمثالِهِ، لأنَّهُ زُورٌ ولا رُوحَ فيهِ".

الكلمة الأخيرة هي للرجاء والحقّ، والرجاء قريب، وكلّ الرجاء هو بيسوع المسيح، وبأنبيائه وبمن يعودون إلى الله عن كلامهم. وهؤلاء موجودون في كلّ مكان والحمد لله.

مراجع

CARROLL R.P., *Jeremiah* , Philadelphia, 1986.

DIETERLE C. et MONSARRAT V., « De Jérusalem à Babylone : La prédication prophétique », *Foi et Vie* 83/5 (1984) 56-69.

OSUJI A., “True and False Prophecy in Jer 26-29”, *EphThL* 82/4 (2006) 437-452.

OSSWALD E., *Falsche Prophetie im Alten Testament,* Tübingen, 1962.

BARRETT M., “True and false: Two Kinds of Faith (Jer 17: 5-17)”, *Biblical Viewpoint* 18 (1984) 23-28.

OVERHOLT T.W.O., “The Falsehood of Idolatry: An Interpretation of Jer X, 1-6”, *JTS* N.S. 16 (1965) 1-12, et “sheqer in the Theology of Jeremiah”, *JTS* 17(1966) 86-104.